النساء في الاسلام

ملخصة من مقالة انكليزية لقاضي امير علي احد علماء الهند

وقد عقدنا على القسم الاول منها الذي صدر في الجزء الماضي حواشي بحرف دقيق ثم رأينا ان ننشر الحواشي الآن بحرف مثل حرف المتن وتدمجها فيه فاصلين بينها وبينه بالاهلة مكمل ما كان يجب علالين فهو منا لا من الكاتب وان نقتصر على التلخيص في بعض الاماكن

وفي اواسط القرن الثالث عشر للميلاد (اواسط القرن السابع للهجرة) كان على ممالك غربي اسيا امراء يلقَّب كلٌّ منهم بلقب الاتابك وقد حاول بعضهم صد سيل المغول (التتر) بجرفهم ذلك السيل مع من جرف من ملوك الاقاليم . وخضع البعض الآخر لهُ ومنهم اتابك شيراز واتابك يزد . قال صاحب كتاب زبدة التواريخ وكانت تركان خاتون زوجة سعد الثاني اتابك شيراز مشهورة بجمالها ونسبها ومبرَّاتها فلما توفي زوجها سنة ١٢٦٠ للميلاد كان ابنها طفلاً فكفلته وادارت مهام البلاد بالحكمة والسداد وعزَّزت شأن العلوم والفنون وكان مجلسها عامرًا باهل الفضل والنبل في عصر ادلهمَّت فيه الظلمات على الاقاليم الغربية من اسيا. ووقع ابنها عن سطح القصر فمات فاخذ الحزن منها كل مأخذ وتخمَّت عن مهام الملك وعهدت فيها الى واحد من انسبائها فكر مرة وقتلها في سكره ونمي الخبر الى ملك المغول (هلاكو ملك التتار) فاقتصَّ منهُ ونصَّب مكانهُ عائشة خاتون ويقال انها كانت امرأة صالحة تقرَّب الشعراء والعلماء فجرت في خطة اتابك زنكي وابنهِ سعد الاول

وكان لبعض النساء شأن كبير في الديار المصرية في عهد بني طولون والفاطميين. ولما أُنشئت فيها دار الحكمة مدرسة للتعليم وناديًا لاهل الطريقة الاسمعيلية امَّها الرجال والنساء معًا فزاد بها شأن المرأة علوًّا . وقد اشتهرت القاهرة المعزّية في كل العصور باماكن اللهو ومجالس الانس فلا عجب اذا راجت فيها سوق الجمال ولكن سيرة النساء المتعلمات كانت دائمًا فيها مما تعطر الاندية بثنائهِ . فالحاكم بامر الله الذي ينتظر ظهور ابنهُ الثاني يفروخ صبر امرهُ مشهور ولكن اخته ست الملك قلما يذكر شيء عنها مع انها كانت على جانب عظيم من الحزم وحسن التدبير وقامت بشؤون الملك بعد قتل اخيها الى ان بلغ ابنهُ سن الرشد . وشجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين ايوب رقيت الى سرير الملك بعد قتل ابنهِ توران شاه ولُقِّبت ملكة المسلمين ويقال انها كانت ذات عقل وحزم ومعرفة تامة باحوال المملكة. وبحسن ادارتها احبطت مساعي لويس التاسع ملك فرنسا (قال ابن اياس في تاريخهِ

ما خلاصتهُ كانت شجرة الدر تاسع من وُلي السلطة بمصر من جماعة بني ايوب وساست الرعية احسن سياسة وكانت تكتب على المراسيم بخطها والدة خليل. وخُطب باسمها على مصر فكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة واحفظ اللهمَّ الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين ايوب)

ولقية المصرية التي نشأت في عهد صلاح الدين كانت شاعرة فاضلة تناظر الشعراء وتساجلهم (قال ابن خلكان في وفيات الاعيان انها صحبت الحافظ ابا الطاهر الاصبهاني بثغر الاسكندرية وذكرها في بعض تعاليقهِ واثنى عليها وكتب بخطهِ عنهُ في منزل سكناي فالمجرح الخصي نشقت وليدة في الدار خرقة من خمارها وعصبتهُ فانشدت لقية في الحال تقول لنفسها

ولو وجدتْ السبيل جدتْ بخدي عوضاً عن خمار تلك الوليدة
كيف لي ان اقبّل اليوم رجلاً سلكتْ دهرها الطريق الحميدة

وحكى لي الحافظ زكي الدين المنذري ان لقية نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر ابن اخي السلطان صلاح الدين وكانت القصيدة خمرية ووصفت آلة المجلس وما يتعلق بالخمر فلما وقف عليها قال « الشيخة تعرف هذه الاحوال من زمن الصبا » فبلغها ذلك فنظمت قصيدة اخرى حربية ووصفت الحرب وما يتعلق بها احسن وصف ثم سيرت اليهِ تقول « عملي بهذا كعلي بذاك » . واصل ابيها وتوجها من مدينة صور في ساحل الشام)

وكان لنساء الامراء في دولة المماليك الاولى اليد الطولى في تدبير شؤونهنَّ وكنَّ يقتدين بنساء الامراء في بغداد فيقمن مجالس الانس في بيوتهنَّ ويدعين اليها الندماء من نخبة اهل مصر . ومن المرجح انهنَّ كن يضعن حجاباً رقيقاً من الحرير يفصل بينهنَّ وبين الرجال اقتداء بالخلفاء الفاطميين الذين كانوا يحتجبون عن عيون الناس . لكن البلاد التي بلغت فيها حرية المرأة حدَّ التمام وكان لها فيها من العزة والانفة ما لا يدركهُ نساء الاسلام في هذه الايام بلاد الاندلس التي زانها ملك العرب فابتعت في ايامهم وبلغت من المجد مبلغاً يفوق التصور

نزل ابناء البادية مدن اسبانيا هم واتباعهم فلم تزايلهم غرائز العرب الشهامة والبسالة واحترام النساء — الاخلاق التي قال فون كريمر انها فطرية فيهم. وما شاع في اوربا بعد تذرعين الاستبسال في الدفاع عن النساء نشأ اصلاً في مدينة قرطبة في عهد عبد الرحمن الاموي

الثالث (الناصر) والحكم الثاني (المستنصر بالله) فعبد الرحمن امير المؤمنين اقام تمثال زوجته على باب القصر الذي بناهُ وسماهُ باسمها (جاء في نفح الطيب ان الناصر مات لهُ سرية وتركت مالاً كثيرًا فامر ان يفك بذلك المال اسرى المسلمين وطلب في بلاد الافرنج اسيرًا فلم يوجد فشكر الله تعالى على ذلك فقالت لهُ جاريتهُ الزهراء وكان يحبها حبًّا شديدًا اشتهيت لو بنيت لي بهِ مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي فبنى لها الزهراء تحت جبل العروس واتقن بناءها واحكم الصنعة فيها وجعلها مستزهًا ومسكنًا للزهراء وحاشية ارباب دولته ونقش صورتها على الباب) وهي التي حميت اليهِ تزيين قرطبة وغيرها من المدن وانشاء دور الصنعة وبيوت الخير التي ملأ بها بلاد الاندلس

والحكم المشهور بنصرة العلم وتقريب العلماء وجمع الكتب العلية استخدم زوجة احد وزرائهِ كاتبةً في ديوانهِ وكانت مشهورة بالادب والعفَّة والصيانة . وحبذا ذكر النساء الشهيرات اللواتي نبغن في قرطبة وغرناطة واشبيليَّة وملقة وطرطوشة وغيرها للدلالة على المنزلة التي كانت للمرأة في الاندلس فالشاعرة ولاَّدة بنت المستكفي بالله كانت واحدة زمانها في الشعر والمحاضرة وكانت مع ذلك مشهورة بالعيانة والعفاف (قال المقري في نفح الطيب قال ابن بشكوال انها كانت اديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر وكانت تناضل الشعراء وتساجل الادباء وتفوق البرعاء . وكان ابوها المستكفي حاملاً ساقطًا وخرجت هي في نهاية من الادب والظرف . حضور شاهد . وحرارة اوابد . وحسن منظر ومخبر . وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة متندًى لاحرار المصر . وفناؤها ملعبًا لجياد النظم والنثر . يعشو اهل الادب الى ضوء غرتها . وبتهالك افراد الشعراء والكتَّاب على حلاوة عشرتها)

وام السعد (بنت عصام الحميري المعروفة بسعدونة) كانت تقرىء الحديث والكلام في مدرسة قرطبة . وحسَّانة التيمية وامُّ العلا اشتهرتا بشعرها وجودة خطهما . والعروضية كانت تقرىء النحو واللسان والعروض في بلنسية (قال في نفح الطيب انها اخذت النحو واللغة عن مولاها ابي المطرف لكنها فاقتهُ في ذلك وبرعت في العروض وكانت تحفظ الكامل للبرد والنوادر للقالي وتشرحهما . قال ابو داود سليمان بن نجاح قرأتُ عليها الكتابين واخذت عنها العروضين)

وكان نساء الاندلس يجالسن الرجال ويحضرن مشاهد الصراع وكانت هذه المشاهد كثيرةً في قرطبة وغرناطة وغيرهما من مدن الاندلس . وكنَّ يصلين في المساجد حيث كنَّ يشتهين بازهار الربيع في نضر الرياض . وكان فرسان العرب الذين لم يفقهم احد في الشجاعة والشهامة يبرزون الى معامع القتال ومعارك الابطال وكلٌّ منهم يثيب باسم من يحبها وقد

تقش شعارها على سلاحه او ربطه حول خوذته . وهي تبث في نفسه الحماسة فيقتحم الاهوال لكي ينال رضاها . ولم تقتصر سطوة النساء في الاندلس على بث الحماسة والشهامة في نفوس الرجال بل كنّ يحفضنهم على ما هو خير من ذلك وابقى ولو لم يكن فيه من الابهة ما في الشجاعة والبسالة — على المبارزة في فنون الادب والجري في حلبة العرفان فكلما فاق رجل في علم او ادب اقبلن عليه بالمدح والثناء . وبالجملة افضل المزايا في الرجال والنساء بلغت اسبانيا في عهد العرب مبلغاً من الحضارة لم تصل اليه بعدهم

واذا عدنا الى الشرق ونزلنا الى العصور القريبة رأينا لبيبي خانم زوجة تيمور لنك من القوة والسطوة ما لا يتصوَّر وقوعه في مثل العصر الذي كانت فيه فان ميراثها وسعيها في اصلاح ما افسده زوجها حبَّبتها الى قلوب شعبها . وقبرها في سمرقند يزار الى الآن من كل البلاد المجاورة ويتبرَّك به . وشاهرخ ميرزا بن تيمور وخليفته كان من انصار العلم والعلماء ويقال ان زوجته گوهر شاد كانت بارعة في علوم الادب والتاريخ وقد ساعدته في احياء معالم العلوم والصنائع في خراسان وغيرها من البلدان . وبسعيها جُدِّدت المساجد والمدارس التي خرَّبها المغول

وكانت البلاد تسير القهقرى رغماً عن ذلك كله وزاد تأخرها بقيام الازبكة المتوحشين المتعصبين وقويت كلمة الفقهاء وزاد الحجاب إحكاماً . لكن لم تخلُ تلك الازمنة من نساء ظهر نبغن رغماً عن القيود التي لحكم الجهل حلقاتها . حتى في بلاد الهند حيث العوائق لا تحصى ابقت النساء المحلات في صفحات التاريخ مآثر لا تمحى

وحسبي الاشارة الى رضية ابنة السلطان التمش اول ملكة في بلاد الهند فانها ربيت وتهذبت تحت عيني ابيها ولما خلع اخوها نُصبت مكانه على سرير دهلي عملاً بوصية ابيها . وابى بالامراء في اول الامر ان يسلموا لها بيد الطاعة ولكنها بحزمها وحسن تدبيرها تمكنت من اخضاع البلاد كلها لسلطتها . وبذلت الجهد في بث العلوم ونشر الصنائع واختارت زوجاً لها رجلاً وضيع الاصل فنفر منه الامراء وخرج بعضهم عليها فقمعت اول ثورة لكنها أخذت اسيرة في الثورة الثانية وقُتلت ولم يقم بعدها من الافغان امرأة تحيي آثارها . وتفاقمت الخطوب الداخلية فمنعت ارتقاء العقل والافغان دون العرب علماً وشهامة فلما قام بابر (ظهير الدين المغولي من سلالة تيمور لنك) دخلت بلاد الهند في دور جديد وقد وصفها هذا السلطان الفاتح وصفاً كأنه خطهُ اليوم بانامل رجل من الانكليز يئسَ في قيود الاسر قال

"هندستان بلاد قليلة الطيبات مكانها ليس فيهم لمحة من الجمال لا يدركون لذة الاجتماع ولا طيب المعاشرة والمسامرة لا ذكاء لهم ولا ادراك ولا ظرف ولا بشاشة ولا حذق في

الصنائع ولا مهارة في الرسم والبناء ولا جياد عندهم ولا لحم صالح ولا عنب ولا شمام ولا ثمار شهية ولا جليد ولا ماء بارد ولا طعام طيب ولا حمامات ولا مدارس ولا مصابيح ولا مشاعيل ولا ثريّات "

وقد ادخل خلفاء تيمور الى الهند بعض الفنون واطايب الحضارة وكثيراً من لوازمها ونقلوا اليها العلوم التي بقيت في اواسط اسيا بعد تخريب التتار لها . وجاء الهند مع بابر وهمايون كثيرون من النبلاء والعقائل هاربين من وجه الازابكة . وهاجر اليها ايضاً اقوام من العرب والفرس والترك في طلب الرزق ومنهم رجل فارسي من طهران اسمهُ غياث الدين فدخل بلاط السلطان محمد اكبر وارتفعت منزلتهُ فيهِ لعلمهِ وفضلهِ وكان معهُ زوجتهُ وابنتهُ وهي يافعة الجمال اسمها مهر النساء وتعرف عند نساء الهند باسم نور جهان ولما عندهن المقام الاسمى . وكانت عارفة بالفارسية والعربية مطّلعة على آدابهما وحاذقة في فن الموسيقى . ويقال ان الامير سليم الذي رقي الى تخت الملك بعد ثذٍ ولقب جهان گير لقيها مرةً في بيت ابيها فشغفت قلبهُ وخاف ابوها ان يبلغ السلطان ذلك فلا يتم لديهِ موقع الرضى فبادر الى تزويجها برجل افاق من الاتراك اسمهُ علي قلي وكان شجاعاً باسلاً لُقّب لبسالتهِ شيرافكن اي قاهر الاسد فارسلهُ السلطان الى بنغالا حاكماً . ثم خلف جهان گير اباهُ وكان حب مهر النساء لم يزل في فؤادهِ فاحتال على قتل زوجها واتى بها الى دهلي وطلب ان يقترن بها فابت عليهِ ذلك فبعث بها الى اكرا وكانت لم تزل فتية في الثامنة عشرة من عمرها فاقامت عند امهِ ست سنوات ثم رآها بعد ذلك فهاجت رؤيتها حيَّهُ القديم لما فرض عليها الاقتران بهِ وبعد التيا والتي احاطتهُ الى طلبهِ فلُبّيت اولاً نور محال اي نور القصر ثم لقبت بعد سنتين نور جهان اي نور العالم وبهذا الاسم تعرف الآن . ومن يوم اقترن بها بدت سطوتها عليهِ وعلى بلاطهِ وشعبهِ . ورقي ابوها الى اعظم المناصب ولُقّب عماد الدولة وجعل اخوها وزيراً فكان الحكم وزراء المقول . وصارت المملكة كلها في يدها تأمر وتنهى بما تشاء ولم ينقصها الاَّ الخطبة فانها بقيت لزوجها وكانت تجلس امام كوة في القصر وتقابل امراء المملكة وتستعرض جنودها . وكان يضرب على الجانب الواحد من النقود اسم زوجها واسمها وعلى الجانب الآخر ما ترجمتهُ " بامر شاه جهان گير ان الذهب يزداد مئة ضعف باسم نور جهان بادشاه بگم " وكان توقيعها بامر نور جهان بگم بادشاه . فصارت هي السلطانة بالفعل واحسنت سياسة البلاد والعباد وطهّرت بلاط زوجها من المفاسد والادران واصبحت غوثاً للمظلومين وملاذاً لمن جار عليهم الدهر . وكانت تربي بنات المساكين والمنقطعين وتزوجهن وتدفع صداقهن من مالها . ولبقت لها في كل

مدينة من مدن الهند بناء رفيعاً او حديقةً غناء او اثراً عظيماً من مثل ذلك . وأزيل البرقع في ايامها او صار سمّي بلا مسمًّى فقد روي عنها انها كانت تخرج للصيد في ونساء بالاطها وأكياتٍ صهوات الجياد كالرجال . وقادت الجنود لما خرج عليها مهابة خان وكان قد فاجأ زوجها واخذهُ اسيرًا فلما بلغها الخبر ركبت في جيشها لتنقذهُ وكانت تهجم على العدو وترميه بيدها . ولما مات زوجها اعتزلت الاحكام وقضت بقية ايامها في اعمال البر وتوفيت سنة ١٦٤٦ ودفنت بجانب زوجها في حديقة شليمار . واليها ينسب استنباط عطر الورد واصلاح ثياب النساء وتنظيم الطعام على الموائد وترتيبهُ في الصحاف على شكل الازهار

على ضفاف نهر جمنا وعلى مقربة من مدينة اكبر بناء لا تكاد الجنُّ تبني مثلهُ بناء شادهُ ملك لزوجتهِ حبيبٍ لحبيبته . فقام في القرنين الاخيرين لإدهاش الناس فتراهم يزورنهُ من شاسع الاقطار . ذهب كثيرون اليهِ غير مصدقين ما يروى عنهُ ثم عادوا منهُ وقد شاركوا المحبين بهِ المدهوشين مما فيهِ من الجمال الفائق . ولقد أدرك القارئ اني اريد « التاج » الذي بناهُ شاه جهان ضريحاً لزوجتهِ « ممتاز زماني » بناءً مدفوعاً بدافع الحب ورسم في مرمرهِ عواطف الرجاء والايمان والثقة . لكن الذين يشاهدون هذا البناء البديع قلما يعلمون شيئاً من امر المرأة المدفونة تحت قبته . فان الاحاديث المنقولة عن بلاط المغول تشبه الاحاديث المنقولة عن بلاط ملوك انكلترا وملوك فرنسا ومنها قصةٌ بلغت الاوربيين وتداولتها كتبهم وهي ان الملوك الذين من سلالة تيمور ادخلوا الى بلاد الهند كثيرًا من العادات الشائعة في بلادهم ومنها اقامة سوق في قصر الملك يوم عيد النيروز يكون باعتها الاميرات من بيت الملك ونساء الوزراء والعظماء وبناتهم فيبرزن سافرات غير متبرقعات ويظهرن من المهارة في بيع السلع ما يزري بأسواق الاحسان في هذه الازمان . ويكون المشترون السلطان نفسهُ والامراء والوزراء والعظماء لكن العفاف والصيانة والشهامة كانت رائد الجميع رجالاً ونساء حتى لم يجد الطامعون الى الخيسة سبيلاً . ويقال ان اميرًا من الامراء اراد مغازلة احدى الاميرات في سوق من هذه الاسواق فانتهرتهُ وكادت تفتك بهِ . ويقال ايضاً ان الامير كسرى بن جهان اكبر رأى امرأة بديعة في سوق منها فاحبها ولما علم انها متزوجة اراد ان يقتل نفسهُ ويلغ اباهُ ذلك فاقنع زوجها بتطليقها فطلقها وتزوج الامير كسرى بها وهي ممتاز زماني التي دُفنت في التاج وزوجها كسرى الذي لقب بعدئذٍ شاه جهان . هذه هي القصة التي يتناقلونها لكنها عرية عن الصحة . والحقيقة ان ممتاز زماني ابنة آصف خان وان الامير كسرى تزوج بها على اسلوب عادي بسيط فاحبها واحبتهُ وكان الحبُّ المتبادل شعارهما خطبها الى ابيها وهو في الرابعة عشرة من عمرهِ ولكنهُ

لم يقترن بها الاَّ بعد خمس سنوات وثلاثة اشهر اي حين صار عمرهُ احدى وعشرين سنة واحد عشر شهرًا وكان عمرها حينئذٍ تسع عشرة سنة وسبعة اشهر واحتفل بزفافها في قصر ابيها احتفالاً باهرًا كما احتفل بزفاف بوران الى الخليفة المأمون. ووزع جهان اكبر نقابها يدهِ وفرّق التحف والهدايا على الناس . وقُرن هذا الاقتران بالسعادة وتحدّث الناس بما كان بين الزوجين من الحب والوئام . ولم تكن ممتاز زماني بارعة في اساليب السياسة وتدبير الملك كحماتها لكن كان لها سلطة فائقة على شعبها لما امتازت بهِ من رقة الطباع ومحبة الخير حتى عدوها في مصاف الاولياء . قال مؤلف البادشاه نامه " لو اردنا ان نعدد مبرات هذه الملكة الكريمة وسعيها لدى زوجها في العفو عن المجرمين لملأنا مجلدًا كبيرًا " فاتت فضلها ونقواها ورقة قلبها وحبها لزوجها وسعيها في خير شعبها مما يفوق الوصف " وقد رافقتهُ في كل حروبهِ وماتت في الثامنة والثلاثين من عمرها وهي معهُ في ساحة القتال فافل نجم سعدهِ بموتها وحينما حضرتها الوفاة دعتهُ اليها واوصتهُ باولادها وخدمها ثم امسكت راسهُ بين يديها وجعلت تبكي ولم يكن بكاؤها على نفسها بل عليهِ لانها كانت تعلم مقدار حبهِ لها فحزن عليها حزنًا مفرطًا وبنى لها هذا الضريح فوق قبرها (وعمل في بنائهِ عشرون الف رجل اثنين وعشرين سنة وهو يراقب البناء بالصبر والتأني)

وكان لهُ ابنان اورنكزيب وداراشكوه وابنتان جهان اراي وروشان راي فانضم ابناهُ وانضمت ابنتهُ جهان اراي الى الاول وقامت مقام امها في بلاط الملك وانضمت اختها روشان راي الى الثاني. ثم خرج الاول على ابيهِ وقبض عليهِ واودعهُ السجن ولم تكن جهان اراي تحسب ان العقوق يبلغ منهُ هذا المبلغ فماتت مصدوعة الفؤاد وامرت ان يكتب على قبرها بالفارسية ما ترجمتهُ

هذا ضريحُ جهانْ ارا الحقيرة إن تنظرهُ يومًا فسلْ للميت غفرانا

وكانت زين النساء ابنة اورنكزيب من الاديبات الفاضلات وكانت تقضي ما تنشئهُ باسم "المخفي" ونمَّ عليها النامون وقالوا انها عشقت شاعرًا يتردَّد على بلاط ابيها لكن ذلك يناقض ما يرى في اشعارها من سمو المطالب والترفُّع عن الدنايا. ويتضح من البيت التالي انها كانت تحتقر ما حولها وتطلب مجالاً اوسع لمواهبها ومزاياها وهو قولها مترجمًا

رأيتُ الظلم في هذي الظلام ساتركها ولو خُلقتْ عظامي

وكان ابوها يحبها حبًّا شديدًا ويفضلها على سائر اولادهِ واراد ان يصرفها عن حرفة الادب فلم تنصرف وماتت في الخامسة والعشرين من عمرها فبنى لها ضريحًا يماثل ضريح جدتها ولو لم يبلغ مبلغهُ من البهاء

وفي عصرنا هذا قام في الهند امرأة شهيرة ساست بلادها احسن سياسة في احرج الاوقات لما ضربت الفتنة اطنابها في بلاد الهند . وبيطوتها وعبيتها وامتلاكها قياد جنودها منعت الثورة من التفشي في بلادها . وهي اسكندرا بكم نوابة بهوبال وقد فاقت هذه الاميرة الفاضلة نساء عصرها وخالفتهن في عزمتها وذكاء عقلها وكانت تحب الاسفار ومشاهدة الآثار . وتقابل الزوّار في قصرها مكشوفة الوجه كانها اميرة من اميرات اوربا ولكنها لما رجعت من زيارة مكة المكرّمة عادت الى الحجاب مجاراةً لقومها . ولو كان في الهند عشرات مثلها لغيرن احوالها الاجتماعية في برهة وجيزة

وحال نساء المسلمين في بلاد الهند الآن تختلف باختلاف الجماعات ففي الجهات الغربية لا يضيّق عليهنّ كثيرًا ولا يتهنّ كما تتهن اخواتهنّ في جهات اخرى حسبما تقضي به العادات القديمة والتعصب الاعمى ولا يُقتصر في تعليمهن على الفرائض الدينية بل كثيرات منهنّ يدرسن اللغة الانكليزية ويتعلمن معها امورًا تدعو الى التقدّم الاجتماعي والراحة البيتية . وفي الاقاليم الشمالية نساء يعرفن العربية والفارسية ولكنني اقول ولا اخشى لومة لائم ان معارفهنّ تعدّ عقيمة في هذا العصر لا ثمرة لها . وهنّ فاضلات بارّات لكن آدابهنّ وفضائلهنّ لا تصلح اقوامهنّ ولا تربي اولادهنّ وما دامت عقولهنّ جارية في الخطة القديمة فلا امل بالنجاح المطلوب . ولا اشير بنزع الحجاب كلهِ لان ما اعتادهُ قوم مدة قرون كثيرة يستحيل نزعهُ دفعة واحدة ولكن علامّ لا يقتدي مسلمو الهند باختهم مسلمي الاستانة حيث باح للنساء ان يخرجن من خدورهنّ ويشاركن الرجال في الاعمال العمومية . فالنساء هناك يحررن الجرائد ويؤلفن كتب التاريخ وينتظمن في المجامع العلمية . واي فرض في الاسلام يمنع مسلمي الهند من تغيير عاداتهم ولو بعض التغيير . وحسبُ مريدي الاصلاح ان البرهمو (هنود موحدون انشأوا مذهبًا جديدًا في بلاد الهند منذ نحو ستين سنة بنوهُ على الاعتقاد بوحدة الله وعلى ان الطبيعة والبديهة يعلنان وجودهُ وبها شاهداهُ وان الناس كلهم اولاد الله على حدّ سوى . وهم يتكرون الوحي ولكنهم يحترمون كل ما هو صالح في كل الاديان) انحطّ نساؤهم ارفع منزلة في بلاد الهند منذ خمسين سنة الى الآن وكل احد ينظر اليهنّ بالاكرام والاحترام . وها نحن في كنف حكومة فاضلة تبذل جهدها في خير كل واحد من ابناء هذه البلاد غير فارقة بين الاديان والمذاهب فلنا افضل فرصة للتقدم والارتقاء . والحركة الادبية التي قام بها ابنا العرب كانت مرتبطة بترقية شأن المرأة فانحطاط شأنها بعد ذلك دليل على الانحطاط العام فاذا اراد مسلمو الهند ان يرتقوا وجب عليهم ان يعيدوا المرأة الى

المنزلة الرفيعة التي كانت فيها في صدر الاسلام . ولنا من تاريخ روسيا الحديث دليل على ارتباط تقدم الامم المادي والمعنوي بمقام المرأة فيها فقد بقيت نساء الاشراف في روسيا محجبات الى بداءة القرن الثامن عشر يعشن في بيوت بل في سجون لا يدخلها النور ولا الهواء أُسدلت الاستار على كواها واحكمت الاقفال على ابوابها ووضعت مفاتيحها في جيوب الاباء او الازواج . واذا أُريد نقلهن من مكان الى آخر نُقلن في محفات محجبات متبرقعات كما ينقل النساء في بلاد الهند . وحتى الآن لم يتمتع اهالي روسيا بالحرية المدنية ولكن فُكت قيود نسائها فجارين الرجال في العلم والتهذيب وصرن من دعائم الهيئة الاجتماعية الروسية فصارت بلاد الروس من اعظم ممالك الارض

كانت شمس المعارف في المشرق فانتقلت الى المغرب فعلينا يجب ان نستمد النور . وكل من يسعى في اعلاء شأن نسائنا له عندنا شكر غير ممنون ولكن " لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم "

قصة لويس ده رُجمون

الفصل الخامس

ومرّت الايام بعد الزوبعة ونحن تائهون في ذلك البحر الخضم وذات ليلة التفتُّ الى ميا فرأيتها ترقب نجوم السماء وعلى وجهها امارات البشر فقلت في نفسي عساها رأت انا دنونا من بورت دارون فسرّت لسروري . ولما سألتها عن ذلك لم تجبني بكلمة بل بقيت محدقة بعينيها الى السماء وبعد ان قضت ساعة زمانية في مراقبة النجوم التفتت اليّ والبهجة ملء فؤادها وقالت انظر الى هذا النجم فنظرت ولم افهم مرادها فقالت ألا تذكر هذا النجم فنظرت اليه ثانية وخطر ببالي حينئذٍ انهُ نفس النجم الذي اهتدينا به الى دار قومها اول ما اتينا اليهم وانا عدنا الى حيث خرجنا منذ سنة ونصف كأن الزوبعة الاخيرة ردّتنا على اعقابنا ونحن لا ندري . فانفطر فؤادي وارتبت في القارب لا اعي على شيء وقد ضاعت آمالي كلها . فركعت بيا الى جانبي وحاولت تعزيتي بان قومها سيرحبون بي وانهم يتخذونني ربيبًا لهم اذا اردت البقاء عندهم وكان صوتها يدخل اذنيَّ ولكنهُ لم يؤثر فيَّ لان قلبت صوابي

ونزلنا على جزيرة صغيرة قرب فم الخليج واضرمت ميا النار علامةً لقومها لتخبرهم برجوعنا وكنا قد اتفقنا على ان نخفي عنهم ما حلَّ بنا لئلا يحتقروننا وتظهر كأننا عدنا من تلقاء انفسنا